مسمى الإيمان عند أهل السنة
دراسة في دلالة نصوص الوحي
على شمول مسمى الإيمان للقول والعمل

د. محمد بن حجر القرني

الأستاذ المساعد بجامعة أم القرى

المقدمة:

الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

فإنّ الإيمان هو الأصل الذي بعث الله به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولأجله قامت الدعوة إلى الدين القويم، وبه تكون النجاة عند رب العالمين.

وأمرٌ هذا شأنه ومقامه لابد على العباد أن يحققوا العلم به ليعملوا بما يقتضيه على بصيرة، ولقد جاء بيانه أتم بيان في الوحي الموحى إلى نبينا محمد ﷺ، فمن رد التنازع إليه زال عنه كل لبس في هذا الباب وفي كل أبواب الدين. كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩.

ومع وضوح هذا الأصل وبيانه إلا إنه قد نازعت فيه المرجئة حيث أخرجوا من مسمى الإيمان ما هو منه، وكان منهجهم الجامع لهم فيما يتعلق بالاستدلال بالنصوص وهو منهج كل مخالف للسنة يتمثل في طريقين مجملين:

الأول: اتباع المتشابه وعدم الرد إلى المحكم، وقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾الآية.. آل عمران: ٧

الثاني: القصور في الجمع بين الأدلة، وذلك بالاقتصار على بعضها دون النظر إلى الأدلة الأخرى التي لو جمعت مع تلك لظهر الحكم العدل. ولذلك فإن أكثر ما يكون النزاع

بسبب هذا وهو سبب الاختلاف والضلال، حيث يحكم في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه واستقصاء أدلته وحججه. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله.[١]

فاعتمدت المرجئة نصوص الرجاء التي من مثل: ((من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)) ونحوها، وأعرضت عن النصوص الدالة على ضرورة العمل وأن النجاة لا تكون إلا بمجموع الأمرين، الإقرار والعمل. ومن غريب ما يفعلونه أنهم يأتون إلى النصوص التي تصف الحالات العارضة أو الخاصة التي لا تناقض الأصول الكلية والقواعد القطعية في الشرع ولا تعارضها وإنما تخصص الحكم بوجهٍ ما، فتجعلها المرجئة معارضة. ومن ذلك قول بعض فرقهم ؛ إن القول لا يعد جزءاً في الإيمان ولا جزءاً من ماهيته لأن الأخرس لا يجب عليه الإقرار باللسان!![٢].

واعتمدت الوعيدية من الخوارج والمعتزلة نصوص الوعيد والتي تدل على أن العمل شرط في النجاة وأنه من الإيمان، فظنت أن ذلك يشمل كل الأعمال الواجبة وأن التارك لشيء منه تارك للإيمان، لأن المؤمن من التزم جميع الواجبات وترك جميع المحرمات، ومن لم يكن كذلك فهو كافر، وصار أصل قولهم ومذهبهم التكفير بالكبيرة.

ولما كان مسمى الشيء أي ما يشتمل عليه لفظ اسمه هو أصل الكلام في الإيمان وقاعدته، اتجهت الرغبة لدراسته هنا، وبيان دلالة النصوص على مسماه، والجواب عما يوهمه ظاهر بعضها من التعارض مع ما دلت عليه محكمات النصوص ومحكم قواعدها الكلية.

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٤٩/١).

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء. د/سفر الحوالي (٢/ ٦٣٠).

تمهيد:

الألفاظ الشرعية تعرف حقيقة مسمياتها من الشرع، ويكون التعرف على معانيها في اللغة لمعرفة أصل اشتقاق اللفظ وربط أصل معناه اللغوي بحقيقة المقصود به شرعاً، وبناء علاقة مفهومة بين اللفظ في معناه اللغوي واستعماله الشرعي. فالشرع حرص على مخاطبة العرب بما يفهمونه من لغتهم، لكنه استعمل الألفاظ مقيدة لا مطلقة، وزاد في أحكامها بما يوافق مراده، وبيّن مراده أتم بيان، فلم ينقل الألفاظ عن معانيها، ولم يغيرها عما كانت عليه، ولكنه قيدها: فجعل الصلاة دعاءً خاصاً، والحج قصداً خاصاً، والزكاة تطهيراً خاصاً، أو تزكية للنفس والمال، الخ.[٣]

يقول ابن تيمية: (ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القران والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم.. فالنبي -ﷺ - قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك. فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف)[٤].

ولما كان (الإيمان) من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله ﷺ، فليس هو مما يحكم فيه الناس بأهوائهم وظنونهم، كان بيان حقيقة مسماه مما يعرف من تقييد الشرع لا أن يؤخذ من اطلاقات اللغة، إذ الشرع حاكم على اللغة لا العكس.

---

[٣] انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٩٨/٧).

[٤] المرجع السابق (٢٨٦/٧ - ٢٨٧)، وانظر الفتاوى (١٦٥/٣٥).

المبحث الأول: مسمى الإيمان في نصوص الوحي

نجد في نصوص الوحي أن لفظ (الإيمان) قد أطلق على عدة معانٍ:

* فأُطْلِقَ وأريد به التصديق، كما في قوله تعالى: (وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ) يوسف: ١٧.

قال ابن قتيبة، وابن جرير، وابن منده: أي بمصدقٍ لنا[٥].

وقال الأزهري: (قال الله حكاية عن إخوة يوسف: (وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ) يوسف: ١٧. لم يختلف أهل التفسير أن معناه، وما أنت بمصدق لنا[٦].

لكن ليس معنى تفسير الإيمان بالتصديق مجرد نسبة الصدق إلى قائله، بل المراد به ما يكون من أمن وطمأنينة يصاحب تصديق خبر القائل. وهذا أعلى من مجرد التصديق، وهو المقصود فى الآية، ولهذا جاءت الآية بلفظ (مؤمن) دون لفظ (مصدق)، لأنه أبلغ في الدلالة على المعنى.

وسئل الخليل بن أحمد: (ما الإيمان؟ قال: الطمأنينة).[٧]

فمراد من فسّر الإيمان بالتصديق من أهل السنة، التصديق الخبري المستلزم للإذعان والقبول، لا مجرد التصديق الذهني الذي هو نسبة الصدق إلى المخبِر أو الخبر من غير إذعان ولا قبول، بل مرادهم التصديق الخبري المتضمن للتصديق العملي كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ الصافات: ١٠٤ - ١٠٥ أي بالعمل والامتثال[٨]، وقوله ﷺ: (والفرج يصدِّق ذلك ويكذِّبه)[٩].

---

[٥] يراجع: تأويل مشكل القرآن. ص/٤٨١، تفسير ابن جرير (١٦٢/١٢ - ١٦٣)، كتاب الإيمان لابن منده (٣٠٠/١).

[٦] تهذب اللغة (٥١٣/١٥).

[٧] لسان العرب (٣٤/١٣)، وانظر: معجم مقايس اللغة (١٣٣/١).

[٨] انظر: تفسير القرطبي (١٠٢/١٥)، ويراجع للتوسع: ظاهرة الإرجاء (٢/ ٢٣٦-٢٣٠).

[٩] رواه البخاري في صحيحه /ك القدر /ح ٦٦١٢، ومسلم في صحيحه /ح ٢٦٥٧ من حديث أبي هريرة.

ثم إنه من المعلوم في اللغة أن اللفظ إذا فُسِّر بلفظ آخر فلا يعني ذلك أن اللفظين متواطئان على المعنى تماماً، وإنما يكون ذلك لأجل التقريب إلى الأفهام(١٠).

وبعض أئمة السنة، كأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي العباس ابن تيمية، يختارون التعبير عن هذا المعنى بلفظ (الإقرار) بدلاً عن لفظ (التصديق)؛ الإقرار المستلزم لإنشاء الالتزام لا مجرد الإقرار بالخبر، ويرون أن تفسير الإيمان بالتصديق قد يكون فيه لبس لا يظهر معه وجه دخول العمل في مسمى الإيمان، لاسيما أن من فرق المرجئة من يجعل التصديق مرادفاً للإيمان وينفي دخول العمل في مسمى الإيمان بناء على ذلك.(١١)

* وأُطْلِقَ (الإيمان) وأريد به قول القلب وعمله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ البقرة: ١٧٧ وقوله ﷺ في حديث جبريل: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١٢).

وهذا حين جاء لفظ الإيمان مقترناً مع لفظ الإسلام.

* وأُطْلِقَ (الإيمان) وأريد به العمل الظاهر والباطن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾البقرة: ١٤٣ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس(١٣).

* وأطلق (الإيمان) وأريد به جميع ما تقدم من الأقوال والاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾الأنفال: ٢ – ٤.

فشرح الإيمان بالأعمال الباطنة كالوجل والتوكل، وبالأعمال الظاهرة كالصلاة والإنفاق.

(١٠) انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري. ص (١٠ - ١٦).
(١١) انظر: كتاب الإيمان لأبي عبيد، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/١٢٠-١٥٣).
(١٢) رواه مسلم في صحيحه/ح ٨ من حديث عمر بن الخطاب.
(١٣) انظر: تفسير ابن جرير (٢/١٦)، تفسير ابن كثير (١/٢٨٦)، أضواء البيان (١/٨٨).

قال عبدالله ابن الإمام أحمد: (وجدت فى كتاب أبى رحمه الله قال: أخبرت أن الفضيل بن عياض قرأ أول الأنفال حتى بلغ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ ثم قال: إن هذه الآية تخبرك أن الايمان قول وعمل)[١٤].

وفى حديث وفد عبد القيس: قوله ﷺ: (هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم)[١٥].

ففيه تفسير الإيمان بالقول والعمل.

ومنه قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).[١٦]

قال الحافظ ابن حجر: (هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن)[١٧].

وهذا هو المعنى الجامع للإيمان، وهو المقصود بالإيمان في نصوص الشرع عند الانفراد والخلو عن القرينة التي تقيد معناه بأحد الإطلاقات التي تقدم ذكرها.

يقول الحافظ ابن كثير: (فأما إذا استعمل مطلقاً، فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً، أنّ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص).[١٨].

وإلى هذا ذهب أهل السنة والجماعة في تفسير الإيمان النافع الذي تحصل به النجاة، فاتفقت كلمتهم على أن الإيمان قول وعمل، وقصدوا بالقول: قول القلب واللسان، وبالعمل:

---

(١٤) السنة لابن الإمام أحمد ٣٧٤/١ رقم ٨١٨.

(١٥) رواه البخاري في صحيحه /ك العلم /ح ٨٧، ومسلم في صحيحه / ح ١٧ من حديث ابن عباس.

(١٦) رواه البخاري في صحيحه / ك الإيمان / ح ٩، ومسلم في صحيحه /ح ٣٥ من حديث أبي هريرة.

(١٧) فتح الباري (٥٢/١)

(١٨) تفسير ابن كثير (٦٥/٦٤/١)

عمل القلب والجوارح. وتنوعت عباراتهم في شرح ذلك وبيانه، (فتارة يقولون: قول وعمل، وتارة يقولون: قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح. وكل هذا صحيح)[١٩].

وإنما قصدوا بذلك زيادة التوضيح والبيان، وإلا فإن هذه التفسيرات كلها ترجع إلى معنى واحد، (فمن قال من السلف، الإيمان قول وعمل؛ أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال: قول وعمل ونية، قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فلا يفهم منه النية فزاد ذلك. ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة. وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل، وإنما أرادوا ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال. ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط، فقالوا: بل هو قول وعمل. والذين جعلوه أربعة أقسام فندوا مرادهم، كما سئل سهل بن عبدالله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة، لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة)[٢٠].

وقال الأوزاعي: (لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة. فكان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها، وتصديقه العمل فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدق ذلك بعمله، فذلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه، ولم يصدقه بعمله، لم يقبل منه وكان في الآخرة من الخاسرين)[٢١].

---

[١٩] مجموع الفتاوى (١٧٠/٧)

[٢٠] المرجع السابق (٧ /١٧١)، وانظر (٧/ ٥ ٠ ٥ ـ ٦ ٠ ٥، ٦٧٢).

[٢١] شرح أصول السنة للآلكائي (٩٥٦/٥)، ورواه ابن بطة في الإبانة (٨٠٧/٢ رقم (١٠٩٧).

وقال الحميدي: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل وقول إلا بنية، ولا قول وعمل بنية إلا بسنة)(٢٢).

وقد نقل الأئمة إجماع السلف على هذا الأصل إجماعاً قطعياً:

* فقال الشافعي: (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم، أن الإيمان قول وعمل ونية ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر)(٢٣).

* وقال ابن عبد البر: (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية.. قول باللسان وهو الإقرار، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، مع الإخلاص بالنية الصادقة)(٢٤).

* وقال البغوي: (اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان قول وعقيدة وعمل، لقوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَٱلرَّسُولِ إلى قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ). فجعل الأعمال كلها إيماناً. وكما نطق به حديث أبي هريرة)(٢٥). ومراده حديث شعب الإيمان، وقد تقدم ذكره.

* وقال ابن تيمية: (أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح)(٢٦).

* ولأبي عبيد والبخاري ما هو قريب من حكاية الإجماع عن السلف بأن الإيمان قول وعمل، فقال البخاري: (لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكة

(٢٢) أصول السنة ضمن المسند (٥٤٦/٢). وستأتي الإشارة قريباً إلى ذكر المراجع التي نقلت أقوال السلف في الإيمان.

(٢٣) شرح أصول السنة للآلكائي (٩٥٧/٥) وقد ذكر أنه في الأم للشافعي. وكذا قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٠٩/٧، ٣٠٨)

(٢٤) التمهيد لابن عبد البر (٢٣٨/٩-٢٤٣)

(٢٥) شرح السنة للبغوي (٣٨/١).

(٢٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).

والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر، لقيتهم كرات قرناً بعد قرن ثم قرناً بعد قرن، أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة.. فما رأيت واحداً منهم يختلف في هذه الأشياء، أن الدين قول وعمل، وذلك لقول الله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾البينة: ٥[٢٧].

وأما أبو عبيد فقد سمى فقهاء الأمصار الذين حصلت له أقوالهم، من أهل مكة والمدينة واليمن والشام ومصر والعراق وأهل المشرق، ثم قال: (هؤلاء جميعاً يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا)[٢٨].

وأما أقاويل السلف بأعيانها فهي كثيرة جداً، يطول ذكرها، وهي مبثوثة في دواوين السنة[٢٩].

المبحث الثاني

موافقة شمول مسمى الإيمان للقول والعمل للحكمة من إنزال الدين

مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان وأنه قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فضلاً عن دلالة نصوص الوحي عليه دلالة قطعية صريحة؛ فإنه هو الموافق شرعاً وعقلاً للحكمة التي أرادها الله تعالى من إنزال هذا الدين. ذلك أن الله تعالى بعث نبيه صلى الله وعليه وسلم وسائر الأنبياء بالخبر والأمر، وأمر عباده بالإيمان بخبره وأمره، فالإيمان بخبره يعنى تصديقه والإقرار به والطمأنينة له، والإيمان بأمره يعني العمل به، فكيف يكون الإيمان مقتصراً على الأول دون الثاني؟ مع أنه من المتفق عليه أن

---

[٢٧] رواه اللآلكائي في شرح أصول السنة (١/١٩٤-١٩٧ رقم (٣٢٠)] وصحح الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري (١/٤٧٨).

[٢٨] رواه ابن بطة في الإبانة(٢/٨١٤)رقم (١١١٧)]. وروى اللالكائي عن أبي زرعة وأبي حاتم الرازيين مثل قول أبي عبيد (١/١٩٧-١٩٨رقم (٣٢١)].

[٢٩] يراجع في ذلك: الإيمان لابي عبيد، الإيمان لابن ابي شيبة، السنة لابن الإمام احمد (١/٣٠٧-٣٨٤)، السنة للخلال (٣/٣٠٥-٣٦٢)، الشريعة للآجري(٢/٥٥٢-٦٩٢)، الإبانة لابن بطة (٢/٧٦٠-٨٢٧)، الإيمان لابن منده (١/٣٠٥-٣٦٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للآلكائي (٤/٩١١ الى اخره، ٥/٩٥٥-١٠٥٧).

الله تعالى أراد الأمرين، وعلى أن من أتى بالثاني وهو العمل دون الأول وهو الإقرار لم يعتبر مؤمنا!! ثم كيف يتحقق مراد الله تعالى حيث أراد من عباده أن يعملوا بدينه ويقيموه في الأرض ويستصلحوا به العباد والبلاد، فكيف يتحقق الصلاح والإصلاح إذا قيل إنّ الدين يكفي فيه القول؟.

ومما يبين ذلك أنه لا يكاد يذكر الإيمان في القرآن إلا مقروناً بالعمل، تأكيداً على لزومه للإيمان، وأنه لا يفارقه وهو جزء منه، فإفراد العمل بالذكر وعطفه على الإيمان ليس يعني أنه غيره؛ بل يعني أنه شطره الذي لا يتم إلا به. كما أفرد ذكر الإيمان بالْقَدَرِ في حديث جبريل مع كونه جزءاً من الإيمان بالله تعالى.

ومن الآيات في ذلك: قول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ البقرة: ٢٥، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾البقرة: ٨٢ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٧ وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ آل عمران: ٥٧، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾النساء: ٥٧، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾النساء: ١٧٣، وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾المائدة: ٩، وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ المائدة: ٩٣ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ الأعراف: ٤٢، وقوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾يونس: ٤، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ

ٱلنَّعِيمِ ﴾يونس: ٩ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ هود: ٢٣ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ الرعد: ٢٩، وقوله تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ إبراهيم: ٢٣ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ الكهف: ٣٠ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾ الكهف: ١٠٧.

وأمثال ذلك من الآيات المذكورة في الكتاب العزيز في أكثر من ستة وخمسين موضعاً.

وبمثل هذا أقام أئمة السنة الحجة على المرجئة الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، كأبي ثور ومحمد بن نصر المروري والآجري وغيرهم.

* فقال أبو ثور: (فأما الطائفة التي زعمت أنّ العمل ليس من الإيمان، فيقال لهم؛ ما أراد الله عز وجل من العباد إذ قال لهم (وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ)؟ الإقرار بذلك؟ أو الإقرار والعمل؟

فإن قالت: إنّ الله أراد الإقرار، ولم يرد العمل، فقد كفرت عند أهل العلم، من قال إنّ الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة.

فإن قالت: أراد منهم الإقرار والعمل.

قيل فإذا أراد منهم الأمرين جميعاً، لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر، وقد أرادهما جميعاً؟ أرأيتم لو أ نّ رجلاً قال: أعمل جميع ما أمر الله ولا اقر به أيكون مؤمناً؟

فإن قالوا: لا. قيل لهم فإن قال: أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل منه شيئاً أيكون مؤمناً؟

فإن قالوا نعم. قيل لهم ما الفرق؟ وقد زعمتم أنّ الله عز وجل أراد الأمرين جميعاً، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً إذا ترك الآخر، جاز أن يكون بالآخر إذا عمل ولم يقر مؤمناً، لا فرق بين ذلك).[٣٠]

يقول ابن تيمية بعد أن نقل قول أبي ثور هذا: (وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين، الإقرار والعمل، وهو يدل على أنّ كلاً منهما من الدين، وأنه لا يكون مطيعاً لله ولا مستحقاً للثواب ولا ممدوحاً عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعاً. وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعاً).[٣١]

وقال محمد بن نصر المروزي: وهو يناقش المرجئة: (فإن قالوا: إن الإيمان هو التصديق، فعليهم أن يصدقوا في كل حال بما يأمرهم به.

قيل لهم: أرأيتم لو قالوا حين حولهم الله عن بيت المقدس الى الكعبة: الله صادق بهما جميعاً، وقد صدقنا بقوله فآمنا به، ولكنا نصلي إلى بيت المقدس كما كنا أولاً مخافة عيب الناس أن يقولوا بدّل دينهم، ونحن نعلم أن الله صادق وأنه قد نسخها؟ فإن قالوا: هم كفار. قيل: ولم؟ فإن قالوا: ليذعنوا ويخضعوا بالطاعة. قيل لهم: وأين وجدتم ذلك في اللغة إيماناً؟ وهم يقولون نعم هو علينا حق نقر به ونصدق، ولكنا نصلي إلى بيت المقدس كراهة اللائمة! فإن قالوا: لم يقروا بعد. قيل لهم: لم يقروا بالفعل، أو لم يقروا أنه حق واجب؟ فإن قالوا: لم يقروا بالفعل، قيل لهم: فالإقرار بالفعل إنما هو إرادة يعبروا عنها أنّا نفعل، وإن لم يفعلوا كفروا في قولكم. فقد ثبت أنّ الإيمان إرادة ووعد بالقول أن يفعلوا، وهنا خلاف ما ادعيتم في اللغة).[٣٢]

---

[٣٠] شرح أصول السنة للآلكائي (٩٣٢/٤-٩٣٣، قم (١٥٩٠).

[٣١] مجموع الفتاوى(٣٨٩/٢)

[٣٢] تعظيم قدر الصلاة(٧٩١/٢-٧٩٢)، وانظر الشريعة للآجري (٦٨٤/٢-٦٨٥).

وقال ابن تيمية: (حقيقة الدِّين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتمُّ بالفِعْل لا بالقول فقط، فمَن لم يفعلْ لله شيئًا، فما دان لله دِينًا، ومَن لا دِين له فهو كافر).(٣٣)

المبحث الثالث:

جواب أئمة السنة عن النصوص التي يوهم ظاهرها الاكتفاء في الإيمان بالإقرار

جاءت أحاديث نبوية يوهم ظاهرها الاكتفاء في الإيمان بالإقرار، ومن تلك الأحاديث:

* ما جاء في الصحيحين عن عتبان بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).(٣٤)

*وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، ثلاثاً، ثم قال في الرابعة على رغم أنف أبي ذر. قال فخرج أبو ذر وهو يقول وإن رغم أنف أبي ذر).(٣٥)

*وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال عند موته سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).(٣٦)

*وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: (أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما فيحجب عن الجنة).(٣٧)

---

(٣٣) شرح العمدة - كتاب الصلاة - ص: ٨٦.

(٣٤) رواه البخاري في صحيحه: ك الصلاة / ح ٤٢٥، ومسلم في صحيحه: ح ٣٣.

(٣٥) رواه البخاري في صحيحه: ك الجنائز / ح ١١٨٠، ومسلم في صحيحه: ح٩٤.

(٣٦) رواه البخاري في صحيحه: ك أحاديث الأنبياء / ح ٣٤٣٥، ومسلم في صحيحه: ح ٢٨.

(٣٧) رواه مسلم في صحيحه: ح ٤٥.

*وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت: (من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار).[٣٨]

وفي هذا المعنى أحاديث أخرى. وكان لأئمة السنة أجوبة عن هذه الأحاديث:

* فقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضٍ لذلك ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع.

وممن قال به الحسن البصري ووهب ابن منبه، وهو أظهر الأجوبة. قال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: (ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، قال الحسن: نعم العدّة، لكن لـ لا إله إلا الله شروطاً، فإياك وقذف المحصنة). وقيل للحسن: (إن أناساً يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: من قال لا إله إلا الله فأدّى حقّها وفرضها دخل الجنة).[٣٩]

وقال وهب بن منبه لمن سأله أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ (قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك).[٤٠]

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم في نونيته:

هذا وفتح الباب ليس بممكنٍ إلا بمفتاح على أسنان

مفتاحه بشهادة الإخلاص والتو حيد تلك شهادة الإيمان

أسنانه الأعمال وهي شرائع الـ إسلام والمفتاح بالأسنان

لا تُلْغِيَنْ هذا المثال فكم به من حلِّ إشكالٍ لذي العرفان[٤١]

ومما يدل على صحة هذا القول أنّ النبي ﷺ رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثيرٍ من النصوص كما في الصحيحين عن أبي أيوب أن رجلاً قال: يا رسول الله

---

[٣٨] رواه مسلم في صحيحه: ح ٢٩.

[٣٩] انظر: كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، لابن رجب: ١٣.

[٤٠] انظر: كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، لابن رجب: ١٣.

[٤١] نونية ابن القيم: رقم ٤٩٨١-٤٩٨٤.

أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال: (تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم)[٤٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: (أن رجلاً قال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. فقال الرجل: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه. فقال النبي ﷺ: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا).[٤٣]

ونظير هذا أنّ النبي ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله)[٤٤] ففهم عمر وجماعة من الصحابة أنَّ من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك فتوقفوا في قتال مانع الزكاة، وفهم الصديق أنه لا يمتنع قتاله إلا بأداء حقوقها، لقوله ﷺ: (فاذا فعلوا ذلك منعوا مني دماءهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[٤٥]، وقال: الزكاة حق المال.

وهذا الذي فهمه الصديق قد رواه عن النبي ﷺ صريحاً غير واحد من الصحابة منهم ابن عمر وأنس وغيرهما وأنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة).[٤٦]

وقد دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥، كما دلَّ قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾التوبة: ١١ على أن الأخوة في الدين لا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد، فإنّ التوبة من الشرك لا تحصل إلا بالتوحيد.

---

[٤٢] رواه البخاري في صحيحه: ك الجنائز / ح ١٣٩٦، ومسلم في صحيحه: ح ١٣.

[٤٣] رواه مسلم في صحيحه: ح١٤.

[٤٤] رواه مسلم في صحيحه: ح٢٠ من حديث أبي هريرة.

(٤٥) رواه مسلم في صحيحه: ح٢١ من حديث أبي هريرة.

[٤٦] رواه البخاري في صحيحه: ك الزكاة/ ح ١٣٩٩، ومسلم في صحيحه: ح ٢٢.

فلما قرر أبو بكر هذا للصحابة رجعوا إلى قوله، ورأوه صواباً. فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترفع عمن أدّى الشهادتين مطلقاً، بل يعاقب بإخلاله بحقٍ من حقوق الإسلام فكذلك عقوبة الآخرة.[٤٧]

*وذهبت طائفة إلى أنّ هذه الأحاديث المذكورة وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود، وأما بعد نزول الفرائض والواجبات صار لا يكفي ذلك الإقرار حتى يضم إليه العمل.

منهم الضحاك بن مزاحم وقد ذكروا عنده "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة"، فقال: (هذا قبل أن تحد الحدود وتنزل الفرائض).[٤٨]

ومنهم الإمام أحمد وقد سئل: "إذا قال الرجل لا إله إلا الله، فهو مؤمن؟ " فقال: (كذا كان بدء الإيمان، ثم نزلت الفرائض، الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت).[٤٩]

ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال: (إنّا رددنا الأمر إلى ما ابتعث الله عليه رسوله صلى الله عليه، وأنزل به كتابه فوجدناه قد جعل بدء الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه.. وليس الإيمان المفترض على العباد يومئذٍ سواها، فمن أجاب إليها كان مؤمناً لا يلزمه اسم في الدين غيره..، فلما أثاب الناس إلى الإسلام وحسنت فيه رغبتهم زادهم الله في إيمانهم.. ثم خاطبهم وهم بالمدينة باسم الإيمان المتقدم لهم في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه.. وعلى هذا كل مخاطبته كانت لهم فيها أمر أو نهي بعد الهجرة، وإنما سماهم بهذا الاسم بالإقرار وحده إذ لم يكن هناك فرض غيره. فلما نزلت الشرائع بعد هذا وجبت عليهم وجوب الأول سواء، لا فرق بينها؛ لأنها جميعها من عند الله، وبأمره وبإيجابه.. فلو أنهم عند تحويل القبلة إلى الكعبة أبوا أن يُصلّوا إليها وتمسكوا بذلك الإيمان الذي لزمهم اسمه، والقبلة التي كانوا عليها لم يكن ذلك مغنياً عنهم شيئاً، ولكان فيه نقض لإقرارهم؛ لأن الطاعة الأولى ليست بأحق باسم الإيمان من الطاعة

---

(٤٧) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، لابن رجب: ١٧-١٩.

(٤٨) رواه الآجري في الشريعة (٢/ رقم ٣٠٣) وقال محققه سنده صحيح.

(٤٩) رواه الخلال في السنة (٣/ رقم ٩٥٥) وقال محققه سنده صحيح.

الثانية، فلما أجابوا الله ورسوله إلى قبول الصلاة كإجابتهم إلى الإقرار صارا جميعاً معاً هما يومئذٍ الإيمان، إذ أضيفت الصلاة إلى الإقرار..) الخ كلامه رحمه الله.[٥٠]

ومنهم الآجري حيث قال بعد أن قرر شمول مسمى الإيمان للقول والعمل والأدلة على ذلك: (فإن احتج محتج بالأحاديث التي رويت "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة"، قيل له: هذه كانت قبل نزول الفرائض على ما تقدم ذكرنا له، وهذا قول علماء المسلمين ممن نفعهم الله تعالى بالعلم وكانوا أئمة يقتدى بهم، سوى المرجئة الذين خرجوا عن جملة ما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وقول الأئمة الذين لا يستوحش من ذكرهم في كل بلد).[٥١]

يقول ابن رجب: (وهؤلاء منهم من يقول في هذه الأحاديث إنها منسوخة، ومنهم من يقول هي محكمة ولكن ضمّ إليها شرائط ويلتفت هذا إلى أن الزيادة على النص هل هي نسخ أم لا والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور، وقد صرح الثوري وغيره بأنها منسوخة وأنه نسخها الفرائض والحدود وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فان السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرا ويكون مقصودهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقف دخول الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم فصارت تلك النصوص منسوخة أي مبينة مفسرة ونصوص الحدود والفرائض ناسخة أي مفسرة لمعنى تلك موضحة لها).[٥٢]

ومراد هؤلاء الأئمة أنّ هذا الإقرار بالشهادتين كان يكفي في بدء الدعوة إلى الإسلام قبل أن تفرض الفرائض، وليس مرادهم أن كل تلك النصوص قيلت قبل نزول الفرائض، فإنه لا يخفى عليهم وهم أئمة الحديث ونُقّاده أنّ كثيراً منها كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنّه كان في غزوة تبوك وهي في آخر حياة النبي ﷺ.

*وقالت طائفة تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة في أحاديث أخر ففي بعضها من قال لا إله إلا الله مخلصاً، وفي بعضها مستيقناً، وفي بعضها يقولها صدقاً من قلبه،

---

[٥٠] الإيمان لأبي عبيد: ٥٤-٥٧.

[٥١] الشريعة للآجري (٥٥٣/٢-٥٥٩)، وانظر (٦٨٤/٢).

[٥٢] كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، لابن رجب: ٢٠.

وفي بعضها قد ذل بها لسانه واطمأن بها قلبه. يقول ابن رجب: (وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين، فتحقيقه بقول لا إله إلا الله أن لا يأله القلب غير الله حباً ورجاءً وخوفاً وتوكلاً واستعانة وخضوعاً وإنابة وطلباً، وتحقيقه بأنّ محمداً رسول الله ألا يعبد الله بغير ما شرعه الله على لسان محمد ﷺ.

وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد لا إله إلا الله يقتضي أنّ لا إله له غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبةً له وإجلالاً ومحبةً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك. ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله، كما ورد إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه، وعلى من سوّى بين الله وبين المخلوق في المشيئة مثل أن يقول ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإيتان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمرة في المرة الرابعة وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة، ولهذا قال السلف كفر دون كفر وشرك دون شرك).[٥٣]

وأما ما رواه مسلم من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري في حديث الرؤية والشفاعة الطويل وفيه: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما

[٥٣] كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، لابن رجب: ٢١-٢٤.

تخرج الحبة في حميل السيل.. قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدموه، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً).[٥٤]

فهذه الزيادة (لم يعملوا خيراً قط) لم تروَ إلا من طريق عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، وأما الرواية التي اتفق عليها الشيخان فهي رواية عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة بمشهدٍ من أبي سعيد الخدري، ما يَردُّ من حديث أبي هريرة شيئاً، إلا ما في شأن مقدار عطاء آخر رجلٍ يدخل الجنة وسيأتي، وليس فيها هذه اللفظة. ونص هذه الرواية المتفق عليها: عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة وفيه: (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل)، ثم ذكر قصة الرجل الذي هو آخر أهل النار دخولاً الجنة إلى أن يقول له الرب عز وجل: (ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له تمنه، فسأل ربه وتمنى حتى إنّ الله ليذكره يقول كذا وكذا حتى انقطعت به الأماني قال الله ذلك لك ومثله معه) قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً حتى إذا حدّث أبو هريرة أن الله تبارك وتعالى قال ذلك لك ومثله معه؛ قال أبو سعيد الخدري: وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة، قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله ذلك لك ومثله معه. قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنّي حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ذلك لك وعشرة أمثاله. قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة).[٥٥]

---

[٥٤] رواه مسلم في صحيحه: ح١٨٣.

[٥٥] رواه البخاري في صحيحه / ك التوحيد / ح ٧٠٠٠، ومسلم في صحيحه: ح١٨٢.

ومع صرف النظر عن الترجيح بين الروايات، فإنَّ لأئمة أهل السنة جواب عنها بما يتوافق مع النصوص القطعية في شمول مسمى الإيمان للقول والعمل، فقد أجاب ابن خزيمة عن هذه اللفظة وأزال ما قد يتوهم منها أنها تعارض ما تقدم تقريره من دلالة نصوص الوحي دلالة قطعية على شمول مسمى الإيمان للقول والعمل لا يكفي أحدهما بدون الآخر - فقال: (قال أبو بكر: هذه اللَّفْظَةُ (لم يعملوا خيراً قطّ) من الْجِنْس الذي يقول العرب: يُنْفَى الاسم عن الشيء لنقصه عن الكمال والتمام، فمعنى هذه اللَّفْظَةِ على هذا الأَصل، لَمْ يعملوا خيراً قطّ، على التّمام والكمال، لا على ما أوجب عليه وأمرَ بهِ. وقد بَيَّنْتُ هذا المَعنى في مواضع من كتبي).[٥٦]

ومثل هذا التقرير قاله ابن عبد البر على إحدى روايات حديث (الآمر بنيه إذا مات أن يحرقوه)، وفيها: (قال رجل لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد)[٥٧] قال ابن عبد البر رحمه الله:

(وهذه اللفظة – يعني "إلا التوحيد" - إن صحت رفعت الإشكال في إيمان هذا الرجل، وإن لم تصح من جهة النقل فهي صحيحة من جهة المعنى، والأصول كلها تعضدها، والنظر يوجبها؛ لأنه محال غير جائز أن يغفر للذين يموتون وهم كفار، لأن الله عز وجل قد أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به لمن مات كافرا، وهذا ما لا مدفع له، ولا خلاف فيه بين أهل القبلة. وفي هذا الأصل ما يدلك على أن قوله في هذا الحديث: (لم يعمل حسنةً قط)[٥٨]، أو (لم يعمل خيراً قط لم يعذبه)، إلا ما عدا التوحيد من الحسنات والخير، وهذا سائغ في لسان العرب جائز في لغتها، أن يؤتى بلفظ الكل والمراد البعض. والدليل على أن الرجل كان مؤمنا قوله حين قيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: من خشيتك يا رب).[٥٩]

---

[٥٦] كتاب التوحيد لابن خزيمة / تحقيق الدكتور عبد العزيز الشهوان (٢٣٧/٢).

[٥٧] رواه أحمد في مسنده /ح٧٩٨٠، من حديث أبي هريرة.

[٥٨] رواه مسلم في صحيحه/ ح٢٧٥٦، ومالك في موطئه / ك الجنائز/ ح ٥٦٨، كلاهما من حديث أبي هريرة.

[٥٩] التمهيد لابن عبد البر (٤٠/١٨-٤١).

ولابن عثيمين جواب حسن عن هذا اللفظ، حيث يقول: (معنى قوله: (لم يعملوا خيراً قطّ) أنّهم ما عملوا أعمالاً صالحة، لكن الإيمان قد وقر في قلوبهم. فإمّا أن يكون هؤلاء قد ماتوا قبل التمكن من العمل... وحينئذٍ يصدق عليهم أنّهم لم يعملوا خيراً قطّ.

وإمّا أن يكون هذا الحديث مقيداً بمثل الأحاديث الدالة على أن بعض الأعمال الصالحة تركها كفر كالصلاة مثلاً.. فيكون هذا عاماً ولكنه يستثنى منه ما دلت النصوص الشرعية على أنه لا بد أن يعمل).(٦٠)

وبعد فأنت ترى أنّ أئمة أهل السنة وإن اختلفت عباراتهم في بيان حقيقة ما تدل عليه تلك الأحاديث، إلا أنّهم متفقون على قطعية دلالة نصوص الوحي على أنّ الإيمان لا يكفي فيه الإقرار دون العمل، وأنّ مسمى الإيمان يشمل القول والعمل، وأنّ المؤمن لا يكون كذلك إلا إذا جمع بين القول والعمل، وأنّ تلك النصوص ليست على ما توهمته المرجئة من أنها دالة على الاكتفاء بالإقرار وحده دون العمل الظاهر والباطن، بل هي متسقة مع بقية النصوص إذا تبين معنى ما دلت عليه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنّ الله لما بعث محمداً رسولاً إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، ولم يأمرهم حينئذٍ بالصلوات الخمس ولا صيام رمضان ولا حج البيت، ولا حرم عليهم الخمر والربا ونحو ذلك، ولا كان أكثر القرآن قد نزل، فمن صدقه حينئذٍ فيما نزل من القرآن وأقر بما أمر به من الشهادتين وتوابع ذلك كان ذلك الشخص حينئذٍ مؤمناً تام الإيمان الذي وجب عليه، وإن كان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه، ولو اقتصر عليه كان كافراً).(٦١)

(٦٠) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٢/٢).

(٦١) مجموع الفتاوى(٥١٨/٧)

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على محمد المصطفى وآله وصحبه، وبعد:

فقد تبين من خلال هذا البحث المسائل التالية:

١- الإيمان من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله ﷺ، فليس هو مما يحكم فيه الناس بأهوائهم وظنونهم، وتبيُّن حقيقة مسماه مما يعرف من تقييد الشرع لا أن يؤخذ من اطلاقات اللغة، إذ الشرع حاكم على اللغة لا العكس.

٢- الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هذا هو مذهب السلف وأئمة أهل السنة، كما حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً، أنّ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

٣- مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان وأنه قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فضلاً عن دلالة نصوص الوحي عليه دلالة قطعية صريحة؛ فإنه هو الموافق شرعاً وعقلاً للحكمة التي أرادها الله تعالى من إنزال هذا الدين. فإنّ الله تعالى أراد من عباده أن يعملوا بدينه ويقيموه في الأرض ويستصلحوا به العباد والبلاد، لا أن يكتفوا منه بالقول.

٤- أنّ أئمة أهل السنة وإن اختلفت عباراتهم في بيان حقيقة ما تدل عليه الأحاديث الموهم ظاهرها الاكتفاء بمجرد الإقرار، إلا أنّهم متفقون على أنّ الإيمان لا يكفي فيه الإقرار دون العمل، وأنّ تلك النصوص ليس على ما توهمته المرجئة من أنها دالة على الاكتفاء بالإقرار وحده دون العمل الظاهر والباطن، بل هي متسقة مع بقية النصوص إذا تبين معنى ما دلت عليه.

والله تعالى وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل.. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد.

المراجع:

١. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة / دار الراية الرياض ط٢/ ١٤١٥هـ

٢. أضواء البيان للشنقيطي / عالم الكتب بيروت.

٣. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية/ تحقيق د. ناصر العقل / مكتبة الرشد ١٤١٣هـ.

٤. الإيمان لابن ابي شيبة / تحقيق الألباني ضمن أربع رسائل/ دار الأرقم الكويت ١٤٠٥هـ.

٥. الإيمان لأبي عبيد / تحقيق الألباني ضمن أربع رسائل/ دار الأرقم الكويت ١٤٠٥هـ.

٦. الإيمان لابن منده / تحقيق د. علي الفقيهي / مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ.

٧. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة/ تحقيق السيد صقر.

٨. تعظيم قدر الصلاة محمد بن نصر المروزي / تحقيق د. عبد الرحمن الفريوائي / مكتبة الدار ١٤٠٦هـ.

٩. تفسير ابن جرير / طبعة الحلبي ١٣٨٨هـ.

١٠. تفسير ابن كثير / المكتبة العلمية.

١١. التمهيد لابن عبد البر / تحقيق مصطفى العلوي / مطبعة فضالة المغرب ١٣٨٧-١٤١٢هـ.

١٢. تهذب اللغة لأبي منصور الأزهري / تحقيق عبد السلام هارون / الدار المصرية ١٣٨٤هـ.

١٣. السنة للخلال/ تحقيق د. أحمد الزهراني / دار الراية ١٤١٥هـ.

١٤. السنة لعبد الله بن أحمد/ تحقيق د. محمد القحطاني / دار رمادي ١٤١٤هـ.

١٥. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للآلكائي/ تحقيق د. أحمد سعد حمدان/ دار طيبة ١٤١٥هـ.

١٦. شرح السنة للبغوي / تحقيق زهير شاويش / المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ..

١٧. الشريعة للآجري / تحقيق د. عبد الله الدميجي / دار الوطن ١٤١٨هـ..

١٨. صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري / المطبعة السلفية/ مصورة الطبعة الأولى دار المعرفة.

١٩. صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي / مؤسسة قرطبة مصر.

٢٠. ظاهرة الإرجاء/ د. سفر الحوالي / مكتبة الطيب مصر ١٤١٧هـ.

٢١. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري.

٢٢. كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب / تحقيق الألباني/ المكتب الإسلامي.

٢٣. كتاب التوحيد لابن خزيمة / تحقيق الدكتور عبد العزيز الشهوان / مكتبة الرشد ١٤١٤هـ.

٢٤. لسان العرب لابن منظور / دار صادر بيروت.

٢٥. مجموع فتاوى ابن تيمية / جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

٢٦. المسند للحميدي / تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي / دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ.

٢٧. معجم مقاييس اللغة لابن فارس / تحقيق عبد السلام هارون / مطبعة الحلبي ١٣٦٦-١٣٧١هـ.

٢٨. نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية / تحقيق علي الحلبي / دار ابن الجوزي١٤٢٥هـ.